الابتكار فى الأدب

يرى بعض أدباء الغرب أن للعصور المجيد ، والشاعر المبدع والموسيقى الماهر موهبة عجيبة تعرف بالعبقرية ، تعمل مستقلة عن الزمان والمكان ، وأن كل مايحتاجه الفنان الموهوب إنما هو الالهام مع قليل من الاقدام . فألق به كما يقولون فى جوف المحيط أو فى وسط الصحراء ودعه يتجه نحو الفن فسيعاون الالهام عبقريته على انتاج الجيد وإبراز المعجز من الفن والأدب .

ولكن الحقيقة أقسى من وهمهم هذا ، فالواقع أنه ليس هناك فنان يعمل مستقلا عن الزمان والمكان . ولو أخذنا طائفة من الكتب الأدبية الرائعة فى أى عصر من العصور ، وقرأناها مع إلمام تام بالكتب التى سبقتها مباشرة لحكمنا مضطرين بأنه لايوجد كاتب - مهما علا قدره - يتهيأ له وجود مستقل عن حدود زمانه ومكانه الضيقين ، إذ الكتاب ماهم إلا أجسام مختلفة تسكنها روح واحدة هى روح العصر الذى يعيشون فيه كما يقول البحاثة الانجليزى بتركونل Pater Quennell . وكذلك الحال فى الموسيقى والتصوير .

وحقا أن الكاتب الكبير قد يطبع العصر الذى يعيش فيه بطابعه الشخصى وينحو بجمهرة المتأدبين نحوا لم يعهد قبله ، وحينئذ يلقبه معاصروه بالمجدد أو الثائر ، ولكنه على ذلك يساير التيار الزمنى ويتأثر بيئته إلى حد كبير . وقد اعتاد مؤرخو الأدب الانكليزى تقسيمه إلى عصور حسب الشخصيات البارزة فى كل عصر ملاحظين هذه الحقيقة المتقدمة . فهناك عصر شوسر ، وعصر شكسبير ، وعصر ميلتون ، وعصر دريدن ، وعصر پوب ، وعصر جونسون ، وعصر وردزورث ، وعصر تينسون . وكلها شخصيات متفوقة تزعمت الأدب فى عصورها وسلكت به مسالك مختلفة . ولكنا رأيناها كثيرا ما يتأخرون بالعصر عن صاحبه ويدخلون فيه بعض مشاهير الأقربين ممن سبقوه ملاحظين تأثره بهم وتأثيرهم فيه ، وتمثيل الجميع لأزمنة متشابهة . وكأنهم بهذا يقررون أن الابتكار الأدبى بمعناه الصحيح لا يتيسر لأى ديب .

وبعد هذا ، هل العظمة الأدبية تساوى الجدة الأدبية ؟

الأجابة عن هذا الاستيضاح تدعو الى التفكير وإنعام النظر . . . فقد اعتاد جل نقاد العربية أنهم اذا أرادوا بحث أثر أدبى أخذوا ينظرون إلى مافيه من الافكار والأخيلة : اجديدة هى فيذكر صاحبها بالفضل ؟ أم سبقه بها غيره فيرمى بأنه دعى ؟ وليس من فضل - عندهم - للكاتب الذى يتعرض لما يتعرض له غيره ولو فى إيراد معانٍ ومن ناحية مباينة . وقديما عدوا سرقات المتنبى . وفى العام الماضى ثاروا على الأستاذ المازنى لأن فكرته فى رواية له وافقت بعض الشىء فكرة رواية لمؤلف غربى .

والحق أنهم مخطئون فى هذا أو مسرفون ، وأنه إن لم يكن بد من الحكم حسب الجدة ، فعليهم أن ينظروا إلى أسلوب الأداء نفسه أهو جديد أم مستعار . فان كان جديدا لايحرم صاحبه من فخر الابداع الأدبى بل يجب أن يعترفوا له بالتفوق على صاحب الفكرة نفسها إذا صاغها صياغة أدق من صياغة سابقه وأكمل ، لأنه حينئذ يكون قد أتى بما عجز عنه الأول . ولعل هذا الذى كان بعض المتقدمين يعنيه بقوله : إن المعانى معلومة للجميع وانما المعول على النظم . هذا هو المقياس المستقيم وبه تدين المنصفون من النقاد الانجليز حينما حكموا بأفضلية وصف العنكبوتة لبوب على وصفها لدريدن ، وإن كان الأول مدينا بالفكرة التى قام عليها الوصف الثانى .

ومن الامثلة القوية التى يصح الاستشهاد بها فى هذا الموضوع شكسبير أعظم الشعراء السكسونيين ، والذى لكتابته المنزلة التالية لمنزلة الكتاب المقدس فى الادب الانجليزى . ولست أستشهد برواياته التاريخية يوليوس قيصر ، وأنطونيو وكليوباتره ، وكور يولينوس Coriolanus التى استعار أصولها بل بعض أخيلتها مما كتبه المؤرخ الشهير فلوطرخ Plutarch وانما أورد رواية أخرى لا تمت للتاريخ

تلاميذك حماقة وجهلا ، وأقلهم استقامة وشرفا ، وأنهم ماقفزوا الى هذه المراتب ، الا ليجحدوا فضلك وفضل أمثالك ، ويسخروا منك ومن أمثالك ، هى سنة الحياة ، يعمل أناس ليجنى الثمرة آخرون

يامولاى الشيخ :

نم مستريحا فى ظلال الخلد ، فأنت أبو النهضة العلمية فى دمشق ، أنت صفحة من تاريخها الحديث ، أنت معلم كل من قرأ فى دمشق كتابا أو خط بقلم

عليك رحمة الله وبركاته .

على الطنطاوى

بنسب ، وتعد من رواياته القيمة التي ألفها في عهد نضوجه الادبي وهي رواية الليلة الثانية عشرة « Twelfth Night » فقد أخذ حوادثها كلها عن رواية ايطالية ، ومع ذلك لم يقل أحد إن شكسبير لم يكن مبدعاً في هذه الرواية أو أنها ليست من مفاخره الادبية .

ومن المفيد أن نذكر خلاصة كل من الروايتين حتى يتبين القارىء مدى الاستعارة . فلخص الرواية الايطالية وقد ألفت سنة ألف وخمسمائة وسبع وثلاثين أي قبل تأليف رواية شكسبير بنحو سبعين سنة واسمها جليجانانى Gl' Inaanngti هو ما يأتي : فابريتو وليليا ، أخ وأخت فرقت بينهما ثورة روما في سنة ١٥٢٧ دفعت المقادير بليليا إلى مودينا مقر فلامينيو الذي كان بينه وبينها علاقة غرام سابقة فتنكرت في زي شاب ودخلت في خدمته فوجدت أنه نسي حبها وتعلق بسيدة من أشراف مدينته تدعى إيزابلا . ليليا كشاب جذاب كانت تحمل رسائل الغرام من سيدها فلامينيو إلى إيزابلا . إيزابلا لم تتأثر بتوسلات فلامينيو ولكنها أحبت ليليا — وهي رجل في اعتقادها — حبا عميقا . فابريتو يصل إلى مودينا ولامر ما يلقى إيزابلا فتم بين الاثنين مراسيم الزواج وهو في اعتقادها ليليا شقيقته . تظهر الحقيقة بعد هذا فينتقل حب إيزابلا في سهولة من ليليا إلى شقيقها ويتزوج فلامينيو من حبيبته الاولى ليليا .

وخلاصة رواية شكسبير ما يأتي : الدوق أورسينو يقيم باليريا ، وقد وقع من وقت طويل في حبال غرام نبيلة من نبلاء مدينته تدعى أوليفيا . أوليفيا لا تبادله الحب بل تنتهز فرصة موت شقيقها ، وتعلن أنها سوف لا تسمح لأي خطيب بالاقتراب منها وأنها ستمكث في حداد على أخيها سبع سنين . وهنا نرى فيولا توأم شاب من نبلاء ميسالين يدعى سيبستيان ، ظن أنه توفي أثناء عاصفة هبت على سفينة كان هو واخته من بين راكبيها ، ونجت فيولا بفضل ربانها على الشاطىء المقابل لاليريا . ولما علمت فيولا بأمر أورسينو وكانت تحبه لما تسمعه عنه ، فكرت في العمل عنده كأمين ، وتنكرت في زي أخيها وقدمها الى قصر الدوق أحد رجال حاشيته . اطمأن الدوق إليها وأطلعها على حبه أوليفيا واستخدمها في استعطافها ، وعندما تراها أوليفيا لأول مرة تفتن بها وتطلب إليها أن تزورها ثانية بحجة اخبارها بسبب رفض طلب أورسينو ، وفي المقابلة الثانية تصدم أوليفيا ببرود فيولا التي أظهرت لها أوله غرامها به . فيولا وهي غير قادرة على كشف سرها لأوليفيا تتركها معللة أنها سوف لا ترجوها في أمر سيدها ثانية . وبعد وقت قصير يأتي سيباستيان الذي يشبه أخته مشابهة تامة حتى أنه لا يميز بينهما إذا ما تشابه لباسهما فتدفعه الحوادث إلى منزل أوليفيا ويتم بينهما عقد الزواج ثم يكشف السر فلا ترى أوليفيا بأسا من اظهار العقد ويتزوج أورسينو فيولا التي كانت تحبه حبا جما

نعم قد استعار شكسبير حوادث روايته من تلك الرواية السابقة على النحو الذي رأينا ، ولكنه صاغها صياغة أخرى وخلقها خلقا جديدا وافاض عليها من قريحته الخصبة وخياله الواسع أفكاراً وصوراً أكسبتها بهاء وجلالا حرمتهما الرواية الايطالية — فهي على استعارة حوادثها جديدة قوية لأنها في أسلوب جديد وهو أسلوب شكسبير القوي الذي امتاز به من غيره . فليس للنقاد أن يطلبوا من الاديب أن يكون أول عابر للسبل التي يسلكها ، أو أصيلا في الموضوعات التي يطرقها ، أو مبدعا للحوادث التي يدور حولها ، والا كان طلبهم من ناحية أخرى أن يمعن في الاطلاع على الآداب الماضية ، وتفهمها عديم الغناء قليل النفع ، ومن غير المعقول أن يكون الادب الحديث غير قائم على الآداب الماضية : كما أنه من غير المعقول أن تكون المدنية الحديثة غير قائمة على المدنيات السابقة . اللهم اذا كان أدبا متأخراً لا يمثل العصر الذي قيل فيه .

والذي يؤاخذ به من يريد الاشتغال بالأدب أشد المؤاخذة هو ألا يكون مبتكراً في أسلوبه ، أو بعبارة أخرى أن يكون أسلوبه مرقعا من أساليب أدباء آخرين يحتذيهم وينحو منحاهم ، وياليته يبلغهم ... هذا لا سواه هو الادعاء الأدبي . فلا فرق بين الأديب والمحسوب على الأدب بالنسبة الى مأثور القول ، إلا أن الأول يخضعه لطبيعته ويتصرف فيه حسب مزاجه الخاص . أما الثاني فيضعف أمامه أو تضعف طبيعته — ضعفه امام المعبود المقدس فلا يستطيع أن يتناوله بتبديل أو تحوير

وعمل الأديب الحق يشبه تماما عمل النحلة التي تحيل بطبيعتها الحلوة ما تمتصه من مختلف الأزهار إلى عسل مصفى لا تتبين فيه الأصول التي أخذ منها . ؟

السيد محمد نوفل